القدس والتراث الفلسطيني و« يوم التراث العالمي »:

لهذه الاسباب يظل كلامنا عن القدس فارغا!

د. وليد أحمد السيد *

جنود في عهد السلطنة امام احد جدران القدس

■ تمر بنا اليوم، السبت 18 نيسان (ابريل)، مناسبة سنوية تعنى بالحفاظ على التراث الإنساني بنوعيه الثقافي والطبيعي. فاليوم هو «يوم التراث العالمي» الذي أقره المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو المنبثقة عن الأمم المتحدة في باريس عام 1972 كمناسبة دورية لرعاية التراث كقيمة إنسانية تتخطى الحدود الجغرافية وتشمل الثقافات العالمية المتنوعة. وقد تم توقيع العديد من الاتفاقيات الدولية وميثاقيات حماية التراث على مدى العقود الأربعة الماضية وبرعاية اليونسكو والمنظمات المنبثقة عنها. ونصت مواد هذه الاتفاقيات على أهمية التراث الذي لا يعود للإقليم الذي ينتمي له أو الثقافة المحلية فحسب، وإنما تعود أهميته للإنسانية، حيث لا يمكن تعويضه في حال اندثاره أو دماره. كما نصت بنود مواد ميثاقيات حفاظ أخرى على المسؤولية الوطنية المباشرة للمؤسسات المعنية الثقافية والسياحية والحكومية بتقاسم مشترك للمحافظة عليه وإصلاحه، بالاستعانة بالمجتمع الدولي على المستويات المالية والفنية واللوجستية.

أهمية التراث العالمي تنضوي تحت السؤال المحوري المهم في مسألة «ضرورة» التراث والهوية في مقابل طروحات الحداثة والتجديد والذي طرح مرارا وتكرارا في منتديات الفكر والثقافة فيما مضى. هذا الطرح كان شرعيا ومفهوما في الماضي وبخاصة في مقابل نظريات وأطروحات العولمة والفلسفات النظرية. وقد تجلت أهم الأطروحات المناهضة للتراث في عدم نجاعته «وقصوره» عن مواكبة مناحي ومتطلبات العصر مما نسبته لدوائر «الجمود» والتقوقع وأحيانا «التخلف». لكن هذه الصورة وتلك الطروحات في ما يتعرض له التراث الإنساني عموما والشرق أوسطي العربي والإسلامي خصوصا من سياسيات منهجية للتغريب والسرقة المنظمة اليوم تتسم «بالسذاجة»، وربما «السماجة». وبخاصة مع تداعيات التدمير والتهويد، وبالذات فيما يخص «تراث القدس» وفلسطين وضياع الهوية العربية وطمسها، وضمن أطروحات «تغريب» تدعي خلو أرض وشعب من حضارة وهوية، فضلا عن «تفريغ» الأرض من سكانها! ومن هنا تتبدى أهمية وضرورة «وقفة» جادة كل عام لا للاحتفال احتفالا «سطحيا» بيوم التراث العالمي، ولكن في إطار وقفة «مراجعة» لما تم إنجازه في كل عام منصرم على مستوى سياسات حفاظية وتفعيل قوانين جديدة وتطوير القائم منها لمكافحة سياسات «قرصنة» ونهب التراث العربي عموما. فأهمية اليوم العالمي للتراث في المنطقة العربية والشرق الأوسط وفلسطين وقطاع غزة بشكل أخص تأخذ طابعا خاصا وخطيرا في ظل التهديدات المباشرة، وبخاصة مدينة القدس العربية التي تتعرض لحملة شرسة غير مسبوقة من تهويد وطمس باتت تهدد الوجود والهوية العربية أكثر من أي وقت مضى.

ومسألة الحفاظ على الهوية والتراث تتجاوز بكثير الجهود الفردية أو المؤسسية المتواضعة وحتى الوطنية، إذ وفي مقابل تلك الممارسات المنهجية تتبدى ضرورة ملحة لتضافر جهود إقليمية وعربية نزوعا نحو تفعيل موقف دولي ورفع مستوى الإشكالية للوعي الجمعي العالمي. وبرغم تواضع قدرات وإنجازات المؤسسات الوطنية، وبالذات في فلسطين المحتلة، إلا أن ذلك لا يعفي من الإشادة أو الإشارة بما تقوم به بعضها في ظروف صعبة. وفي هذه المساحة الضيقة لا يتسع المجال لذكر العديد من المؤسسات المعنية بالتراث عربيا وفلسطينيا، وعلى أهمية أدوارها وأقدمها، حيث تمتد جذورها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، واحتضنت حضارات تعود للعصور الكنعانية والبيزنطية والمسيحية، ثم الإسلامية، ومرورا بالحقبة الصليبية وما تبعها من فترات الحكم المملوكية والعثمانية. ويمثل مركز المدينة حدثا تاريخيا مهما، لاحتوائه على عناصر الموروث الثقافي والمعماري، حيث تقبع العديد من مبانيها الأثرية داخل مركزها كشواهد ومآثر حضارية، خصوصا تلك التي تعود للفترة العثمانية والمملوكية، والتي تتنوع بين البيوت السكنية الخاصة وبين المباني العامة كالمساجد والكنائس والمدارس والمقابر والأسواق العامة والحمامات.

وفي ذات الإطار الثقافي الذي تنبع منه فعاليات النشاط الفلسطيني في هذا اليوم العالمي للتراث، وقعت كلية الهندسة بالجامعة الإسلامية مؤخرا اتفاقية تعاون مع وزارة الثقافة لتصميم مشروع «المتحف الوطني»، وهو مشروع فلسطيني رائد لمكافحة عمليات تهريب وسرقة الآثار المنهجية التي تجري برعاية الاحتلال وعلى أيدي عصابات «فلسطينية» متواطئة، تبدأ بالصلعوك الصغير مرورا بالتاجر المحلي وانتهاء بشبكات التهريب العالمية. وفكرة إنشاء المتحف الوطني تتضمن توثيق تاريخ المنطقة، إلى جانب حماية المقتنيات الأثرية، والاطلاع عليها وإيجاد عوامل للجذب السياحي. ومن ناحية أخرى يجسد تعاونا محليا وثيقا لتفعيل الكفاءات والخبرات الطلابية وتحفيزها باستثمار جهود الطلبة في مساق مشروع التخرج لصالح إعداد مشروع متكامل لتصميم المتحف بما يشمل تنسيق أرض الموقع، ووضع الأفكار التصميمية وربط المشروع بحركة المواصلات والبيئة المحيطة، وذلك لتفعيل دور الجامعة في خدمة المجتمع المحلي.

وفي هذه المناسبة السنوية يعنينا أن نضع مجموعة من النقاط المهمة على طريق التدبر والمراجعة من قبل الجهات المسؤولة المعنية، ولرفعها لمستوى الوعي العربي الجمعي والتعاون العربي المشترك لحماية التراث. ومن هذه النقاط:

أولا – على المستوى الفلسطيني: ضرورة تفعيل دور المؤسسات الوطنية المعنية بالهوية والثقافة والتراث، وفوق كل ذلك ضرورة التنسيق بينها والتعالي فوق الخلافات الحزبية السياسية الضيقة. فالتراث الفلسطيني المنوط برقبة الساسة والمسؤولين الوطنيين الصادقين يتجاوز التراث العمراني، ليشمل الهوية الفلسطينية ودوائر الثقافة والفولكلور، وكل ما يعبر عن الهوية الفلسطينية من أزياء وعادات وتقاليد إجتماعية ومأكل ومشرب ونمط معيشة ورواية وقصة قصيرة وسواها. وهذا التفعيل الثقافي الوطني يشمل البرامج والمؤسسات والكفاءات المحلية التي تجاهد بالفكر والقلم لتقرير حقيقة ودحض أكذوبة، وتأهيلها والمحافظة عليها في ظل هجرتها وراء الإغراءات العالمية والإقليمية. فالمرابطون على أرضهم يكون دعمهم بأهمية الدفاع عن قضية ووطن إن لم يكن أكثر أهمية في ظل سياسات القتل والتهجير. فهم وبجهدهم في الحفاظ على الهوية والتراث يمثلون ما تبقى من دليل على عدالة قضية شعب وحضارة. وفضلا عن ذلك لا تخفى أهمية تأهيل مراكز الحفاظ التراثية وتوثيق التراث المتداعي، الفيزيائي، بالإضافة للتراث الفكري والثقافي وتفعيله في مقابل منهجيات «نسبة» التراث الفلسطيني لإسرائيل بدءا من أنماط الفولكلور – كالثوب الفلسطيني، مرورا بأنماط من الأطعمة العربية والفلسطينية التي باتت تغزو أسواق العالم منسوبة ـ زورا وبهتانا – للدولة العبرية. كذلك لا تخفى أهمية فضح ممارسات محو الهوية المعمارية الفلسطينية في كل مدن وقرى فلسطين وعلى رأسها مدينة القدس وما يجري حاليا في منطقة سلوان التاريخية.

ثانيا – على المستوى العربي المؤسسي: ضرورة تضافر الجهود الوطنية في الإقليم الواحد بتفعيل وتشكيل منظومة من المؤسسات الوطنية العربية التي لا تعمل بمعزل عن الأخرى، بل وضمن برامج تبادل خبرات وضمن أنشطة دورية تضمن تكافلا ثقافيا وتنسيقا عاما في إطار تحقيق مستوى من الانسجام يكفل الحد من «تهريب» وقرصنة التراث لتفعيل مجموعات من القوانين التي ترفع للجهات الحكومية الإقليمية.

ثالثا – على المستوى العربي الجمعي: أهمية التنسيق الإقليمي والدولي لصرف موارد المؤسسات الدولية والأوروبية في مكانها المناسب بعيدا عن الجهود المؤسسية المفتتة والمتناثرة، والتي تعمل كقاعدة لهرم وظيفي مؤسسي تتربع على قمته «مؤسسة عربية تراثية» تنبثق من الجامعة العربية تكون مرجعية رئيسية لمخاطبة العالم ومؤسسات الأمم المتحدة كاليونسكو على طريق رفع المشكلات التي يعاني منها التراث العربي، ونحو سن القوانين التي «تخص» الأقاليم العربية بعيدا عن عمومية وفضفاضية ميثاقيات الحفاظ العالمية التي تحمي القوي ولا تنصف الضعيف بشكلها الحالي. وفوق ذلك كله فضح سياسات «قرصنة» التراث، وباتجاه سياسة إعلامية عربية واعية تضع العالم أمام مسؤولياته، لا أن تظل ميثاقيات اليونسكو حبرا على ورق. كذلك كي تعمل هذه المرجعية العربية الواحدة باتجاه متابعات قضائية، أمام القضاء الدولي، تلاحق السارق والمهرب والمهرب إليه، وتفكيك شبكات مافيا التهريب العالمية التي تنشط في المنطقة العربية.

رابعا – إنشاء «لجنة دولية عربية عليا» للمحافظة على التراث تضم باحثين وأكاديميين وخبراء عرب مختصين بالتراث، بحيث تتخطى هذه اللجنة الحدود السياسية والجغرافية على غرار «لجنة التراث العالمي» المنبثقة عن اليونسكو، وبحيث تكون هذه اللجنة مرجعية مهمة تثري الواقع النظري والتطبيقي في مجالات الحفاظ التراثية من جهة. ومن جهة أخرى كي تعمل هذه اللجنة «كهيئة» استشارية إقليمية مختصة على مستوى رفيع تتم استشارتها في سن القوانين وتفعيلها سواء من قبل المؤسسات الوطنية الإقليمية أو من خلال المرجعية العليا للتراث العربي بالجامعة العربية.

خامسا – تخلو أجهزة الإعلام العربية المحلية والإقليمية من برامج توعية بأهمية التراث وطرق المحافظة عليه ورفع المشكلات الثقافية الهوياتية للوعي الشعبي والجمعي العربي. وهي مسؤولية مشتركة تتقاسمها الجهات الوطنية والإقليمية. ومن هنا تأتي أهمية «قناة فضائية» تخدم هذا الهدف، اما ككائن مستقل، أو بتخصيص جزء يتناسب مع أهمية الحفاظ التراثي ضمن قنوات فضائية عربية.

أما في غياب مجموعة النقاط المشار إليها وغيرها، فتبقى الاحتفالية بيوم التراث العالمي شكلا أجوف «فارغا من المضمون» على المستويات العربية والإقليمية والعالمية سواء بسواء!

* معماري وباحث أكاديمي – لندن
sayedw03@yahoo.co.uk

تداعيات

عَمَلُ الشاعر

علي جازو *

■ كلاهما، الغريزةُ والتكرارُ، مدافعٌ عن نفسه. كلاهما عدوّ العطب والجمود. كلتا القوتين تسبقان الموت، حين يرتفع الأخير إلى مصاف رغبةٍ لا تُحتمَل. الغريزةُ مسحورة ومضغوطة بالإشباع الآني الحال. التكرارُ، محبوساً بلا زمنيّة وتدفّق آلية اكتفائه العصية. كلاهما، حالما يبلغ ما ندعوه – في شيوعٍ باهتٍ – بالإتمام أو الحدّ الأعلى للتحقق، يبدأ من جديد المسعى نفسه رغبةً وتكثيفاً في تثبيت الحسّ على الموضوع نفسه، ونيْل الانفعال المُعاد الغاية ذاتها. لا شيء يثبت، ولا شيء يُحاز! أنْ نكرّرَ هو أن نبدأ. ونحن لا نكرّرُ ما لا نعرف، ولا نشتهي ما نجهل. عبر تكرارنا الغضّ لما خبرناه وامتلأنا به سابقاً، نتعرف عليه كما لو لأول مرة، تحت ضوء ندىً قاس، ذلك أن البداية – صلبةً وجذابةً ومتخفيّة – كلمةٌ لا تتبدّل، غير أن حاجّتنا إلى حمْلها، مشهداً بريئاً بلا حدود واكتمالاً بدئياً ناصعاً، تدفعُنا إلى تقبيل الجرحَ في عينه المغمضة، بالشفاه عينها التي ذاقتْ خسارات باهرة، وقد غدت أشهى وأرق مغمورة بتألّق الكلمة مكرّرةً على ابتكارٍ أمضى غزارةً وأشدّ انفعالا. يستعير التكرارُ، في ليونة اقتدار مسرفٍ، من الغريزة قوّتَها الباذخة، وتستبدل الغريزةُ عن التكرار إحجامَهُ عن التّغيّر ونظامَه « الفارغ « الصارم. القوّةُ، حتى إنْ كانت عمياء قاسية، مشفوعة ومطاعة بالنظام المرفوع – خلَل تأمّل التكرار كجوهرٍ ضدٍّ – إلى مستوى مرهفٍ من الاستبطان، تدفعُ المكتومَ المكرَهَ إلى التفتّحَ، والمنسيَّ الراكدَ إلى التذكّر، والخاملَ المعتقلَ إلى التحمّس والتوقّد. لا نظامَ جاهزاً. النظام يُبنَى حينما تكون حاجةٌ إلى نظام. لا معنى مباحاً مشاعاً كوباء. المعنى يُسحَبُ و يُستَجَرُّ، أو بقول جاك دريدا « أكبر مردود ممكن من المعنى»، عندما ينفلتُ ويتوارى وينسحق ويندثر. ما لا يُرْجَأ قط، ما لا يقبل بكْماً ولا تخثُّراً، قبْضَ ضرورة كارتواء زهرة سامّة فاتنة، هو ما يحرّضُ – تحت انجذابات التخيُّل الصّرْف– بناءَ قيامةٍ قصوى وإحلالِ غريزة ليست العفّةَ ولا الخطيئةَ، إنما تدارُكُ العفّة بنبْلها الطائش الشريف، وتهشيمُ الخطيئة بسخْفها الأرعن الخطّاء. والمعنى الشعري– كم مرّةً ينبغي توسُّل الشّعر، كم مرة ينبغي صوْنُه كتحفة نادرة؟!،– بلا ضرورة استقراره على راديكالية غير مستقرة– مكلومٌ ومَحميٌّ بمزيج هذه الاستعارة المزدوجة. يشير « فيكو» إلى أنّ حسيَّة الخيال تلبي حاجات الجهل الماسّة. هنا تمكن قراءة الغريزة من شغف حسيَّة خيالها، واعتبار التكرار– عدا كونه صوْناً أميناً لها– قوّةً أصليّةً لا تعرف النفاد، قوّةً تحكمُ التحوّل مثلما يحكمُ الجهلُ بالشيء سؤالَهُ الجوّابَ. لا نودُّ النظرَ إلى المعنى الشعري بمنطق العلّة والمعلول، المبنى والمعنى، السبب والنتيجة. لا نبحث عن الركون إلى سببية تعطّبُ البحث، مفضيةً إلى نتيجة متوقعة سلفاً. إننا نرى داخل المعنى الشعري بزوغاً عاجلاً، مسرحاً خاصاً تعيّنه فرديّةٌ شخصيّة، تستحقّ الإعفاءَ من كل تسمية باتة، حيث يكون العقلُ، محاصراً بحاجاته الإباحية فقط، أذكى وأرفعَ، أدقّ وأرقّ وأعمقَ إذ يؤسّسُ معرفتَه كما يلبّي صراخاً روحياً سامياً. نشير، بعد هذا الطواف المريك، إلى أن التذكّر– مُصاغاً بنقائض كذهب الخيانة المرّة– حيث فعاليةُ الشّعر في ملاذها الوحيد ليست سوى تأويلٍ مضاعَف للتكرار ثريٍّ. الحسّيّةُ الأثيريةُ بلا موضوع سالب، أي إثراءُ الغريزة– عبر وضعها كمادة موسيقية في سياق تأمّل مصْغٍ– إلى طيف بالتركيز على الغريزة نفسها، لا حجبها أو تبديلها أو تعويضها، على فهْم فرويد المختلط القار. طيفٌ ذهنيٌّ هي الغريزة فيما تكرارُها يكلّمُها بصوت نَغَميّ النبرة. ذلك أن الروحَ تُدرَك، وكلّ روح إصغاءٌ فريدٌ لصمت لا يتشابه، عندما تكون في الدرجة الدنيا– الدرجة الأقصى المبتدأة والمحاطّة بغريزة واعية. أي أنها تتكرر في تكشّف حام عندما تدرك كونها أرضيّةً تماما، سطحية تماما في مستوى المرئيّ والمحسوس، على وتيرة احتفال سخيّ، منحازة ومباركة بحلم لا يكفّ عن استنجاد تكراره وائلا موطناً يحميه – قبل أي خطر آخر– منّ الفوضى المحيطة المسعورة.

يقيمُ الشعريُّ، إنْ كانت إقامةٌ، في التّنحي لا التّصدي، في الإزاحة لا المرافقة، في اليتْم النابح لا العائلة الغول، في التقدّم المستتر الخفر لا الوصول الرخيّ المهذار، في الإصغاء الوقور النازفَ لا الصراخ المؤذي المفسد. يفترضُ التكرارُ عودةً منفردةً، فيها يكتنزُ ما مضى ولا يعود، ما لا يمكن أن يستعاد أبداً. يهتبلُ، من خيبة العودة، عودةً معكوسة إلى ما سيكون. يقدّمُ فعْلُ التكرار « حَدَثاً « ممكناً لفعْل يستحيل أن يوجد كما كان. يبدو التكرارُ مستحيلَ التحقق، وداخل هذه الاستحالة –المخمورة– يتجلى ويختبر عمل الشاعر! هكذا – ليس الجديد فحسب– بل النادر بسماته ذات العرفان القاسي– مضمارُ التكرار السائل وعراكُ الغريزة الشاق. الحفظ والوفاء، الشهادة على الغياب– إخلاصاً لما ينجز ولا يهنأ ولا يوارى ولا يموت ولا يحيا–، دونه لا يملكُ التكرارُ أي تعلّق بما يؤلَف حين يعيدُ استحالتَه غريزةً تأسرُ وجودَها. ربما وحده التكرار يتعلق بما سيحدث، مستعيناً ومراقباً ما حدث بالفعل. يبني التكرارُ بيتاً يجدر بالغائب، مكاناً معشوقاً لما ندعوه المستقبل. لا نريد الإيحاءَ بتمركز ما، بانعكاسات الفكر الجامد ذي المبادئ الأولية، أو على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز: (كلما اعتقدنا بمبدأ أولي كبير، فإننا لن ننتج سوى ثنائيات كبيرة وعقيمة). وإذا ما كنا مؤمنين، كما أسلف وأفلس وتساوى، في يتْم شنيع، كلّ إيمانٍ شامل، بأنّ الخلقَ يتأتّى من تناقض قوي، فإننا نحصرُ إيماننا بجاهزيةِ الخلق المعدية، بميكانيكيته الشديدة الخواء، في حين يستوجبُ الخلقُ الحيويّة التي لا تتألّقُ ولا تتعاضدُ ولا تتماسَك دون جذْر من تنوّع فعّال. بتأكيدنا على تداخل وتراكب الاستعارة المزدوجة (غريزةً في التكرار، تكراراً في الغريزة– طهْراً كالعنف) نؤكّدُ على سلالة متنوعة هجينةٍ صافية، على تضمين الأبهى والأرقى في الأبسط والأكثر ديمومة وزوالاً، حيث لا تفترض الغريزةُ الإباحة قدر ما تصونُ الحياءَ، ولا يستولدُ التكرارُ النسْخَ قدر ما يستدعي تركيز الذهن على رهافة الاحساس البريء. إذا كان ثمة إيحاءٌ بتوجّه ما، يمكن تحديده لاحقاً، فإنه يودُّ الإصماتَ والإنقاءَ والخلْعَ– إصماتَ ما يثرثر وخلع ما يرجو– يودُّ الأمومةَ الراعية، الاحتضانَ الدافئ العزيز، لأجلهما (يصير) التكرارُ جلاءَ الغريزة، والغريزةُ حصانةَ التكرار، و بهما– على عاتقهما يشرقُ عمل الشاعر. كنْ غريزةً، تكراراً، (بحراً لا يدنّن).

ومن الانتعاش المبتكرِ غير المسبوق، من حسية تقارب منحى المتصوفة الغريب، يعثر الشعريُّ على انتماء حرٍّ– انتماء ينسب إلى الغياب الأكثر كمالاً، الأعمق في لا تحدده، في تهرّبه المستمر وتسرّبه المستمر ومكابدته المستمرة. المعاناةُ حيرة تنأى عن كل تورُّطٍ وكلّ توريث. المعاناة معنى كلّ مكان، والمكان عينٌ في الشاعر، والشاعر صوتٌ في لا إقامة ولا موطن ذي حدود منجزة، كما أشار موريس بلانشو يوماً، في كتابه (الفضاء الأدبي): « ينتمي الشاعرُ إلى لغة لا يتكلمها أحد، والتي لا تتجهُ إلى أحد، والتي لا تملك مركزاً، والتي لا تدل على شيء». علامَ، إذن، يدل التكرار، وممَّ تنبعُ الغريزة؟!

* شاعر من سورية

نص

لم أقتل أحدا

يزيد الديراوي *

■ لم أقتل أحدا، ولم يطل أحدٌ من ساعتي ليوقف الوقتَ حتى أجد الجهة المناسبة للركض خلف ما بدا لي مريحا. لاحقتُ الريحَ أكثرَ من مرة لأسمع ما تسرّ للأشجار به فتصرخُ من الفرح.

لاحقتها مرة حتى اصطدمت بباب البيت كنت أضع يدي في جيبي وأمشي خفيفا تحملني مترا وأمشي مترا آخر على قدمي وأدندنُ أغنية فيروز (من زمان كان في صبي العب انا وياه)، حلمت أني ألمس السحابَ بعد أن حدثتني أمي عن ناطحات السحاب في بلاد لم أزرْها حتى هذه اللحظة، وحين صحوتُ وجدتُ وجهي ملتصقا ببلاط الغرفة.

كان البلاط أبيضَ تماما كلون الحلم، جرّبت أن أرى الله. نمتُ على السرير، وتجاهلت كل حواسي مستعينا بإغماض عيني، ومضت ساعة وأنا على هذا الوضع ولم أر سوى دوائرَ بيضاء تتسعُ وتضيق ومع تكرار المحاولات والملل منها تطورتْ تلك الدوائرُ حتى بدت كحبل مشنقة لا فرصة أمامه للعبة تجاهل الحواس، قرأت في إحدى المجلات عن طفل بحث مثلي عن الله ثم صعدَ إلى السماء فحوّلته السماء إلى فيل أبيض بستة أنياب ليدخل في خصر أمه ويولد من جديد على هيئة زهرة لوتس بيضاء فيها صفات الكمال، وبعد أن راقبتُ خصر أمي لم تعجبْني فكرة الفيل ولا الثقيلة، وحول أعناقهن وشاح صوفي وأنوف وأعقاب أقدام تضيء احمرارا من البرد، أنوف النساء البّاردة أمارة بالسوء والمعطف النسائي الطويل يجعلني أكثر شبقا يخفي جيدا ما أحب أن أراه جسدا حريريا يكويني بدفئه، هكذا حتى لامست أول فتاة كنت في الرابعة عشرة من عمري.

جاءت لتستعير دفتر الواجبات المدرسي وانتظرتْ داخل البيت كي تجف ملابسها قليلا من المطر أو على الأقل أن يخف المطر في الخارج وكان الدفء سيد الموقف. لم أحب الفتاةَ ولم أفكرْ بها من قبلُ، فقط التقطتُ الدفتر من يدها وهي ترتعش تحت ثوبها المدرسي المخطط وإما أن أكتشف سر تلك المنطقة المستديرة التي تضع الدفتر عليها كلما أعطتني ظهرها لتراقب المطر من خلف الباب، وإما العقاب المدرسي، وما كان أن أعطتني ظهرها مرة أخرى لتراقب المطر والناس ورفعتُ بيديّ الباردتين طبقات الدفء لأكشفَ سرا أبيض يشوبه احمرارٌ أيضا بعيدا عن فضول الطفولة واقترابا من رغبة الرابعة عشرة في تحقيق الدفء الجسدي والاحتفاظ بالبكارة لكلينا، وأحببتُ من يومها تفكيري في تلك الفتاة، وشكرت الريح للمرة الألف.

عشتُ ضيفا على الريح والبياض الذي تقدمه لي. لم تقلقني كما أقلقت المتنبي، ثم توطدت علاقتي بالبحر أكثر فهو يجبرهن على التعري أمامه حين تغيب الريح في الصيف. عرفت أن البحرَ صديق لا يستحق القتل ولم يخفف هذا خوفي من الغرق، ربما لأن لي خالا اشتهر بين أصدقائه بمهارته فقط وواصل: ألم يغرق ابن نوح في الموج؟ إذن الموج ليس جبلا فلم نسمع عن أحد غرق في الجبل، واكتفيتُ بإصراري على أني لم أسرق لا الرسومات ولا المدرس ولا القرآن ولا نوح ولا بحره حتى، ولم أتعلم السباحة خشية الغرق، خفت من الغرق بعد أن فكرتُ كثيرا بقتل البحر ومواجهة الريح بلا موج يحجب أسراره، فلا بد أنه يحجب الكثير من الطقوس التي ستفرحني مثل الأشجار. في الشتاء يُحضر أبي قطعا من أفرع الشجر الجافة يختارها بعناية ويضعها في كانون ويشعلها خارج البيت ثم بعد أن تخف النار يدخلها للبيت نلتف حولها ولا تقدر أجود أنواع التدفئة الحديثة على إحداث دفء الكانون في البيت، وفي آخر الليل يبلل ورق الجرائد بالماء ويلف البيض به ليدسه في الرماد تحت بقايا الجمر ويتركه حتى ينضج، وفي يده سكين ليحرك الجمر، تسخن قشرة البيض ببطء وعلامة نضج البيضة أن تنكسر القشرة كأنها جاهزة للتقشير والأكل، تنكسر باصدارها صوت (طق)، نأكل ولم يتوقف يوما عن ذكر الفرق بين نار البيض ونار جهنم وينسى أن الحديث عن جهنم يقضي على الرغبة في الأكل. ربما هناك خلف البحر أكثر من شواء البيض، وحين نضجت حواسي أكثر ونضجت معها رغباتي في كشف سر الريح، أحببت النساء في ملابس الشتاء قتل أمي ولا تحويلي إلى جماد حتى لو كان زهرة لوتس تخرج من بطن أمي واكتفيت بكلام أبي: الله موجود يرانا ولا نراه. إلى أن همس صديق لي أنّ من الأنبياء من رأى الله، ففرحتُ بفكرة كوني نبيا، وطرت إلى المصحف ففيه كل ما يلزم المرء ليكون نبيا ولله الحمد أن هُدم الحلم مرة أخرى بأنّ محمدا آخر الأنبياء. توقفت بعدها عن إخبار أصدقائي الضالين بما أحلم به..

وعدت لملاحقة الريح، الريح تأتي بالمطر ولها صوتٌ يقلل من هدوء الليل، والريح تسبب الفرح للأشجار. في «غزة» حيث ولدتُ تهبّ الريحُ دائما من الغرب من جهة البحر، ظننتُ أن البحر يحجب عني سر الريح العظيم الذي يجعلها قادرة على تحريك الكون. البحر والريح صديقاي المخلصان منذ الطفولة، أتجسس على الريح وأصالح البحر كي يخبرني عن أسرار الريح. في حصص الرسم تعودتُ مزج الحلمَ على ورقة الرسم حتّى خلصتُ إلى لوحة لشجرة كبيرة تنبتُ في وسط البحر أجلسُ عليها وأمد يدي لأمسك الريحَ واستعضتُ بخطوط مائلة عن الريح والأغربُ من هذا أن المدرس اتهمني بسرقة رسوماته.

أخبرني أبي بذلك بعد أن طلب المدرس مني احضاره وشكره أبي يومها، وأخبرني بعدها أن موج البحر ليس جبالا وصوّره القرآن بالجبال في قصة نوح لتعظيم الموج

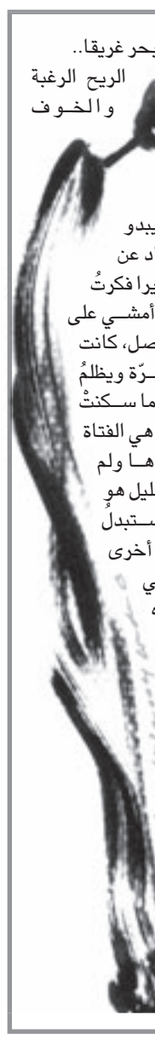

في السباحة حتى لفظه البحر غريقا..
علمتني الريح الرغبة والخوف
وإخفاء الأسرار
وانتقاء الأصدقاء
ومعرفة الجهة الأقصر لما يبدو مريحا لي حتى في الابتعاد عن رؤية الله، أحببت الريحَ كثيرا فكرتُ أن أتزوجها، وحلمتُ أني أمشي على البحرِ كي أصل إليها ولا أصل، كانت الشمسُ تغيبُ في كل مرّة ويظلمُ البحرُ فلا أصلُ إليها، ربما سكنتْ تلك الفتاة أو ربما كانت هي الفتاة نفسها فلم أرَها من بعدها ولم تُرجع الدفتر لي، أو ربما الليل هو ما يخفيه البحرُ. قلت سأستبدلُ الريحَ والفتاةَ بفتاة بيضاء أخرى على أن تنقل الواجبات في البيت وعلى مكتبي هذه المرة، وحين سألتني أمي هل ستتزوجها فاجأتها بأني أحب الريح، ولكي تهرب من المفاجأة أخبرتني أن الريحَ ذكر، صدقت بعدها أن الريح تقيم مع فتاتي خلف الليل، ومن يومها أريد أن أقتل الريحَ.

* شاعر فلسطيني
مقيم في القاهرة

مسابقة الكاتب الشاب للعام 2009 في الرواية والنص المسرحي

لندن ـ «القدس العربي»:

يوفر برنامج الثقافة والفنون هذا العام جائزة أولى قدرها 4000 دولار في مجال الرواية، وجائزة مماثلة في النص المسرحي لكاتب/ة شاب/ة يتراوح عمره/ا ما بين 22 و35 عاماً (مواليد ما بين 1/1/1974 و31/12/1986). وعلى من يرغب في المشاركة أن يكون فلسطينياً/ة بغض النظر عن مكان إقامته/ا، شريطة أن يكون العمل الأدبي باللغة العربية، ولن تقبل الأعمال المنشورة سابقاً. ويمكن لكتاب شباب من الجولان السوري المحتل المشاركة في هذه المسابقة.

فترة الترشيح: تقبل الطلبات لهذه المنحة قبل تاريخ 30 نيسان 2009، ويتم الإعلان عن أسماء الفائزين في خريف 2009.

لمزيد من التفاصيل عن شروط التقديم، يرجى الاتصال على هاتف رقم: 2960544، أو زيارة الموقع الإلكتروني الخاص بالبرنامج: www.qattanfoundation.org/cap.